«أسرار ساعة الرّمل»
والشّكل التّجريبي لواقعيّتها الغرائبيّة

محمد دكروب

كيف تتوالد الحكاياتُ وتظهر الوجوه؟.. ومتى تتوالد؟ هل تتوالد قبل أن تنكتب؟.. أم تنكتب انطلاقاً ممّا كان، فيأتي الحدث إلى الكتابة ممّا سبق أن حدث؟.. أم أنّ الحكايات/ القصص تنكتب في أفقِ ما يُمكن وما ينبغي أن يحدث، فتأتي الوجوه إلى الكتابة من المستقبل؟..

أم أنّ الحكايات إذْ تنكتب تتوالد؟ والوجوه إذْ تنرسم تظهر وتنوجد وتسعى؟

.. هذه التّساؤلات والمعضلات «التّقنيّة» لم تعد تكتفي بأن تطرح نفسها على النّقد وعلى كتّاب القصّة والرّواية عندنا؛ بل هي اقتحمت النّسيجَ الدّاخلي للنّصّ القصصي الرّوائي لبعض التّجارب الرّوائيّة العربيّة الحديثة، وصارت جزءاً من «الموضوع» ـ إذا صحّ التّعبير ـ؛ وفي بعض النّصوص صارت كأنّها هي الموضوع؛ كأنّما الرّواية صارت هي حكاية الرّواية نفسها؛ حكاية محي الرّواية إلى الكتابة، وحكاية حضور الرّوائي في النّصّ لا كشخصيّة من شخصيّاتها فحسب، بل أيضاً كراوٍ يحار هل هو يكتب الرّواية أم ينكتب فيها وبها؟

ولعلّ قصّة إلياس فركوح «أسرار ساعة الرّمل» ـ (المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ١٩٩١) ـ أنْ تدخل في هذا النّسيج من التّساؤلات والإشكالات التّقنيّة ـ الحياتيّة، معاً.. وتطرح علينا وعلى نفسها تساؤلاتها وإشكالياتها.. وتدخل، بهذا، في مناخ التّجريب الفنّي، المشغول بوعي وإتقان، بما يعلنه وبما يريد أن يخفيه..

* * *

القصّة هذه نصٌّ تركيبي من عدّة قصص: مدخل بعنوان «الكاتب يبدأ» ومقطع أخير بعنوان «الكاتب ينتهي»، وبينهما أقصوصاتٌ ثلاث.. وكلّها متداخلة بشكلٍ ما، وأحداثها تجري معاً، وفي بناية واحدة، (أو تنكتب وهي تحدث.. تتوالد أحداثها معاً.. كما سنرى):

١ ـ الكاتب يبدأ: يقلّب السّاعةَ الرّمليّة ويتأمّل فيها: ذرّات الرّمل تنثال إلى الطّبقة السّفلى، وتتراكم.. الكاتب يستنتج وكأنّه يتساءل: هكذا تتولّد الحكاياتُ وتظهر الوجوه وتتكوّن العلاقات.. وتتكاثف الأسرار..

الكاتب يدخل في اللّعبة، يتأمّل كيف تصير الحكاية داخل الحجرات الزّجاجيّة، في الطّابق السّفلي من.. ساعة الرّمل!. ويحاول الكاتب استخراجَ مكنون ما يحدث، في الطّوابق السّفلى.. (سنعرف، في الصّفحات الأخيرة، أنّ الكاتب ـ سكن ـ أو كأنّه يسكن ـ أحد الطّوابق العليا للبناية.. فهل نستبق الأحداث؟)

نحن هنا لا نقصّ فنراعي ضرورات التّشويق، بل نحاول أن نقوم بقراءة خاصّة لقصّة راعى فيها كاتبُها ضروراتِ تشويقٍ ليس علينا بالضّرورة أن نلتزم به. بل قد يكون من الضّروري لنا ـ نقديّاً ـ أن نكشف، مسبقاً، بعضَ الأسرار الّتي يحاول الكاتب ـ عادة ـ تأجيلَ كشفها إلى الصّفحات الأخيرة وربّما الأسطر الأخيرة في القصّة

٢ ـ في أسفل الطّابق السّفلي (للبناية) فبوٌ تحدث فيه جريمة مخضّبة بالشّهوة والرّعب وبراد الجحيم. فعلٌ جنسيّ بين الرّغبة والصّراع.. شاب يمارس الجنس مع فتاة سبق أن حوّلها امرأةً. ولاحظت على نفسها بدايات حمل، فهي تريد منه أن يسرع في الزّواج منها؛ ولكنّها لا ترفض الاستمرار في الفعل الجنسي بل هي ترغب فيه. وهو يريده كذلك، ويُضمر التّخلّص منها، وأن تكون فعلته هذه «آخر مرّة». فسوف ينالها الآن، إذن، حتّى الشّبع النّهائي!.. ويحدث فعل جنسي وفعل القتل!. هي تقتله، تكتم صوته الضّاجّ كجثير الوحش، صوته الّذي يحمل بضجيجه الفضيحةَ الرّاعبة..

ليس يعنينا ـ الآن ـ تحليلُ هذا الحدث، وتبيان «القول» الّذي ينطوي عليه. بل الّذي يعنينا ما يتضمّنه من إشارات إلى حدثٍ آخر ـ جحيمي شبقي أيضاً ـ يجري في الطّابق، فوق القبو.. إذْ تنظر الفتاة ساهمةً في السّقف، فوقها. «حيث يسجّى جسدٌ في غرفته الموصدة».

وحيث تجري القصّة الثّانية..

فالكاتب يقيم **العلاقات** بين الأقاصيص الفرعيّة الدّاخلة في نسيج القصّة المتكاملة الّتي يكتبها. وفي حين كانت الأحداث تجري في «القبو» (القصة رقم: ١) كان الكاتب، في أحد الطّوابق العليا، يكتب الأحداثَ نفسها، ويدخل بنا إلى «الغرفة الموصدة» (القصة رقم: ٢) حيث يجري حدثٌ آخر.. والكاتب، فوق، وفي الآن نفسه، يكتبه.

وهذا الّذي نكشفه الآن، سوف يكشفه الكاتبُ، في الصّفحات الأخيرة من قصّته، وهو يدهش «فاغرٌ فمه»: إذْ كيف ينكتب الحدث **قبل** أن يحدث، أو **وهو يحدث**؟

ولكن التّجريب هو التّجريب!

على أنّ أصالة التّجريب تتجلّى في مدى صيرورة **القول**، الّذي يُضمره الكاتب، عنصراً عضوياً في صلب التّركيب التّجريبي نفسه حيث الشّكل، هنا، هو **القولُ نفسه**.. **وهو موقف** الكاتب، المُضمَر نفسه.. أو هو «المضمون» (إذا كان لايزال مسموحاً لنا أن نستخدم أحياناً كلمة «المضمون» هذه !!.)

فلنتابع القراءة قبل أن نستبق **القول** النّقدي.

٣ ـ في «الغرفة الموصدة» (القصة رقم: ٢) يجري حدث غريب، جحيمي أيضاً: جسد امرأة ميتة مسجّى.. الجسد جميل، تتأمّله امرأة قويّة تقوم بعملية الغسل، بنوعٍ من الاستمتاع، يكاد يصير شبقاً.. إلى جانبها فتاة طازجة تنقل الماء الحار إلى الغاسلة، وتدخل هي أيضاً في أجواء النّشوة الغريبة. الجسد المسجّى هو جسد أمّها الّتي ذهبت دون أن تأخذ كفايتها من حضور الرّجل في جسدها.. وهي أيضاً (أي الابنة) تعيش حرمانها الخاص.. المرأة القويّة تنتقل بالملامسة إلى الفتاة.. تلتحم بها.. تشتعل النّيران «على مرأى من الجسد المسجّى» في الغرفة الموصدة..

الأجساد المقموعة تعيش حياتها، حريّتها، تفجّر حرمانها، في خفاء الخفاء!.

والكاتب ـ هنا أيضاً ـ يصيء العلاقات بين أقاصيصه: فينكشف لنا أن قتيل القبو هو أخو الفتاة هذه، وهي ـ في الغرفة الموصدة ـ تستعيد صورته عندما «رأته يتسلّل ويتبع كالكلب الفتاةَ القاطنةَ في الطّابق الأعلى. لمحته يشير لها بأن تسبقه إلى أسفل».

والحكايات تتوالد.. «الكاتب» ـ فوق ـ يكتبها.. في الآن نفسه يكتبها!.. ويدخل في القصّة الأهم: العقدة الأساسيّة لهذا النّسيج التّركيبي من القصص: اجتماع حزبي، سرّي، في الطّابق الثّاني.

٤ ـ في «بين التّاسعة والعاشرة» (القصة رقم: ٣) يقع الحدث/العقدة: ففي الوقت المحدّد للاجتماع يدخل «آخر الوافدين»، قلقاً، متطيّراً، حذراً وخائفاً: لماذا هو استثنائي هذا الاجتماع؟.. ولماذا يحدث في غير موعده؟. مُذْ دُعي إلى الاجتماع ـ الاستثنائي هذا ـ والشكّ يؤرقه!.

هو يُخبرهم أنّه رأى حشداً من النّاس في الخارج، فيقول له المضيف: «لا تخف.. إنّها سهرة الاغتسال الأخير.. الدّفن غداً!.. السّيّدة الّتي في الطّابق الأوّل ماتت».

الكاتب ـ هنا أيضاً ـ يقيم علاقة مع القصّة رقم: ٢.. حيث رأينا ما يجري داخل «الغرفة الموصدة».. بل إنّ هذا الوافد الأخير، الحذر القلق، أحسّ برائحة الدّم الّذي تفجّر في القبو، تحت، عند خطوه الدّرجةَ الأولى في البناية، واصطدم بسواد النّسوة المتطلّعات إليه بوجوه كالحة عندما مرّ بالطّابق الأوّل، وها هو يعرف أنّ الموت الآن يقيم تحته.

والتخوّف يصير خوفاً حقيقياً.. والباب يُقرع.. ويحدث ما كان يتوقّعه:

الشّياطين ـ رجال الأمن ـ يقتحمون المكان.. يكتسحون كلّ شيء.. يطرحون الجميع على وجوههم، وتبدأ حفلة الضّرب بالأقدام والأيدي وبكلّ شيء!.. ويكتشف، «آخر الوافدين» هذا، أنّ شياطين الأمن هؤلاء يعرفون عنهم كلّ شيء: أرقامهم وأسماءهم السرّيّة، والموضوعات الّتي يبحثونها.. ويعرفون أنّ رقمه هو «ثلاثة» (ولكنّه هو كان قد قرّر، للتوّ، بأنّه «كان». ثلاثة).. فقد انكشف له كلّ شيء: شياطين الأمن، وشياطين الدّاخل، بين الرّفاق أنفسهم!. ومن فمه النّازف كان صوته يئنّ بكلامٍ مكتوم: كلّ شيء يبين، في النّهاية!.. ولكنْ لم يسمع صوته سواه...

و«سواه» هذا، هل هو نفسه «الوافد الأخير»؟.. أم أنّ «الكاتب» هو الّذي يسمع؟..

و«الكاتب»، فوق، في الآن نفسه، يكتب الحدث، يصوّر عملية الاقتحام هذه، ويطلق بوجه رجال الأمن أنّهم.. شياطين!.

هنا نصل، ربّما، إلى اللّعبة: كيف تتولّد الحكايات؟

الأقصوصات الّتي قرأناها تحت عناوين: «الكاتب يبدأ»، «القبو»، «الغرفة الموصدة»، «بين التّاسعة والعاشرة»، هل هي قصص كتبها «الكاتب» فعلاً، أم أنّه يفكّر بكتابتها.. يتخيّلها؟.. أم أنّها قصص وأحداث فعليّة تجري الآن، بين القبو، والطّابق الأوّل والثّاني، والطّابق فوق حيث «الكاتب» يكتب ويتأمّل في ساعة الرّمل وأسرارها؟.

القارئ لا يطمئن إلى جواب. كذلك «الكاتب» (داخل القصّة) يدهشه التّداميجُ الغرائبي بين الحقائق والأوهام.

نحن هنا لسنا أمام شكلٍ من أشكال التّجريب فحسب، بل نحن أيضاً أمام شكلٍ من أشكال **قول** التّجربة الغائرة في العمق السّحيق من النّفس.. وشكل مختلف من أشكال التّعبير المرير والعنيف والغريب، عن مناخات القمع الخفي والمعلن وغرائب حالات الانقماع:

فشياطين الأمن يقتحمون على «الكاتب» خلوته الكتابيّة!

عجيب!

هذه أوّل مرّة يداهمون فيها شقّته، منذ عشر سنوات!. لقد ترك «الكاتب» العمل السرّيَّ والنّضالي، والكتابات الخطرةَ، منذ عشر سنوات!.. هم يعرفون هذا!.. فماذا حدث ليقتحموا عليه ـ الآن ـ خلوته الكتابيّة؟

الّذي حدث ـ وهو ما أدهش «الكاتب» وأرعبه ـ أنّهم عرفوا ماذا كتب الآن، لتوّه، عنهم!..

صفعه رئيسُ المقتحمين، وأمر بمصادرة الأوراق الّتي أنجزَ، للتوّ، كتابتها.. ولكن «ليس في القصص ما يشكّل تهديداً لكم»!.. فجابهه الرّئيس: «القصّة الأخيرة. أليست تشهيراً بعملنا السّاهر على سلامة الجميع؟».

كيف عرفوا؟!

«الكاتب» يتساءل «فاغراً فمه، مصعوقاً».

ونحن أيضاً نتساءل: كيف يتخلخل الزّمان على هذا النّحو؟ كيف تنكتب الأحداث قبل أن تحدث؟.. وكيف تجري الأحداثُ إذْ تنكتب، في الآن نفسه؟. فالأحداث الّتي رأيناها في القبو وفي الطّابق الأوّل والثّاني ـ خصوصاً ـ بدأت في التشخّص وفي الحركة إذْ بدأ «الكاتب» بكتابتها!.. ولكنّنا سنرى أنّها لم تتوقّف إذْ توقّف هو عن كتابتها... بل هو الآن يتحمّل نتائجها: تقتحم عليه شقته، كصاعقة قامعة.. وسيرى «الكاتب» ـ (عندما جرجره رجالُ الأمن خارجَ شقته هابطين به الدّرجَ) ـ سيرى النّساءَ المتشحات بالسّواد في عزاء المرأة المسجّاة في الغرفة الموصدة.. وسيرى أيضاً رجال الإسعاف وقد أخرجوا جثّة رجل مقتول من القبو. وسيرى رفاق الاجتماع السرّيّ، الاستثنائي، يجرجرهم رجالُ الأمن، كما يجرجرونه، هو!! وسوف يحار «الكاتب» في تفسير كلّ هذا الّذي يراه: «كيف يكون قبل أن يكون؟!. كيف رآه قبل أن يحدث؟!. كيف وصفه قبل أن يتشخّص؟!».

فهل المسألة هنا مجرّد لعب تجريبي في الكتابة، وإظهار براعة القاصّ في التّحريب والتّغريب والتّركيب؟

وهل هذه المحاولة المحدّدة من التّجريب والتّلاعب بالزّمن ـ كما السّحر وكشوفات العرّافين ـ مجرّد مسألة فنّيّة، تقنية؟ أم أنّ هذا التّركيب الحدثي نفسه يحمل، في العمق من شكله التّركيبي بالذّات، دلالاتٍ إنسانيّةً وجوديّةً كيانيّة

تعطي لهذا الشّكل التّركيبي قيمَته الفنّيّة.. وتعطيه كذلك «واقعيّة غرائبيّة»؟

لنحاول، بكلمات، إعادة تركيب الأحداث.. وبالأخصّ أحداث القصّة رقم: ٣، وما تلاها مع «الكاتب» من غرائب:

أعضاء تنظيم سياسي سرّيّ، يتوافدون إلى اجتماع استثنائي، في شقّة في الطّابق الثّاني.. الوافد الأخير إلى الاجتماع يعلن تخوّفه من هذه الدّعوة الاستثنائيّة.. ونحن نرى إلى الحدث والأشخاص والتوتّر والإشارات والمناخ من منظور هذا الوافد الأخير، أو شكوكه.. ثمّ يقع ما يتوقّعه: رجال الأمن يقتحمون الشقّة، يضربون ويحطّمون. ويركّز الوافد الأخير (أو «الكاتب»..) بؤرة التّصوير على شراسة الشّياطين هؤلاء، وعلى ملامح من عميلهم الخفيّ.. ويخبرنا بقراره السّريّ بالابتعاد عن رفاقه وعن مصادر الخوف والرّعب كلّها..

يُنهي «الكاتب» قصّته هذه، وتبدأ مشكلته مع نفسه، مع الأغوار السّحيقة من ذاته، حيث الرّقيب الخفي القابع هناك، يمارس المهمّة الّتي أوكلها هو إليه، منذ عشر سنوات!..

يتماهى «الكاتب» بالشّخصية الّتي كتبها: فـ«الوافد الأخير» يصير هو نفسه «الكاتب» الّذي أنجز قصّته الأخيرة، الخطيرة.. قال فيها أشياء كان قد قرّر أن لا يعود أبداً إلى قولها!.. ولكنّ الرّعب قد تسَرْطَنَ في العمق من كينونته.. **لم يكن عليه أن يكتب ما كتب**.. وفي الوقت نفسه يشعر، ويعرف، أنّه لم يكتب ما يجب أن يُقال: لم يكتب ولو بعضَ البعض ممّا يكبته ويكبته منذ سنوات وسنوات، ويراكمه في الطّابق السّفلي من مخزن الأسرار..

كأنّ الحكايات الحقيقيّة تظلّ داخل زجاج السّاعة الرّمليّة: كلّما قَلَبها انثالتْ ذرّاتُ الرّمل (القصص ـ الأسرار) إلى الطّبقة السّفلى، منطقة المكبوت، داخل قبّة الزّجاج القامع، القاسي.

وتتواتر الإشاراتُ والهواجسُ المتناقضة، داخل الرأس المتفجّر والنّفس المتصدّعة. الكاتب «ينصت إلى دوّي الكلمات المكبوتة».. ولكن عليه أن يستمرّ في الكتابة، إذْ «لا مبرّر لوجوده دون المواصلة».

وإذْ عاد يتأمّل في ما كتب، في قصّته الأخيرة، أحسّ بنقص ما في الكلمات، وفي الرّوح.. من أين يأتي هذا النّقص؟. ها قد نطقَ «الكاتب»، على الورق، داخل غرفته الموصدة، باحتجاجه الصّريح!. من زمان لم يُطلق «الكاتب» هذا الصّوت.. تاب عشر سنوات عن العمل النّضالي السّياسي، وعن الكتابة الّتي تقول وتجهر..

فهل الرّعب القديم نفسه ـ الرّعب العتيق المعتّق الخفيّ والرّاسخ ـ هو الّذي أطلق شياطين الأمن.. أطلقهم عبر هلوسات الكتابة وغرائبيّة الحدث، فإذا الّذي يختبئ خلف السّطور، وينكبت في أغوار الذّات، يصير واقعاً، يتجسّد ويتشخّص.. يصير رجال أمنٍ يصعدون، من داخله، ليقتحموا عليه شقّته وهو في داخلها.. بل ويشعر «الكاتب» بضربات الرّئيس وركلات الآخرين!؟.

يصير هذا كلّه، ليقمع «الكاتب» نفسه بنفسه. وليظلّ المكبوت مكبوتاً، فلا يصعد إلى الكتابة، بل هو ينثال من طبقة زجاجيّة مغلقة إلى طبقة زجاجيّة سفلى موصدة بإحكام.. ولتظلّ أسرار ساعة الرّمل قابعة في قاع القاع من ساعة الرّمل!.

فهل اقتحم عليه شياطينُ الأمن شقّته فعلاً؟.. وإذا كان هذا قد حدث فمن أين عرفوا أنّه ـ للتوّ ـ قد شتمهم على الورق، وصوّر شراستهم؟ من قال لهم؟! ألا ترون أنّه هو الّذي قال لهم؟. هو نفسه المخبر والمخبَر عنه.. هو نفسه أطلق الشّياطين من داخله لينهالوا عليه ضرباً وركلاً وشتماً.. ليأمروه بأن يصمت، يكتم صوته.. يكبته ولا يكتبه!؟.

الغرائبيّة تأتي من هنا... والغرائبيّة ـ هنا ـ ليست إذن مجرّد شكل ولعب تجريبي، وفانتازيا، وتركيب فنّي متقن ومشغول.. الغرائبيّة، هنا، تعبير عن حالة، هي الرّعب وقد تشخّص.. فالغرائبيّة هنا، كشكل تجريبي، هي هي **الموقف**، وهي هي القول والمصمون وما شئتم من مصطلحات لا فرق، ولكنّها ليست أبداً مجرّد شكل ولعب فنّي.

«الكاتب» الّذي تاب عن النّضال السرّيّ وابتعد، بوعي، عن أيّ نشاط «مريب»، وعوّد نفسه على الحذر والتحسّب حتّى صارت مراقبة الذّات غريزة عضويّة أساسيّة فيه، أقنع نفسه بأنّ الكتابة هي، وحدها، «وسيلة للحياة ومبرّرٌ لها». ولكن، أيّة كتابة هذه؟.. إنّها لا تقول المكبوت.. وقد تعبّر عن مكبوتٍ آخر، جنسي (في القصّة رقم: ١، والقصّة رقم: ٢).. ولكن، حتّى هذا المكبوت هو شكلٌ من أشكال التّعبير عن **القمع** الجنسي، و**الانقماع** الجنسي.. وهو أيضاً يستدعي اعتراضاً من شياطين الأمن!.. وعندما اكتشف «الكاتب»: «أنّ نقصاً ما يترك فراغاً في كلّ ما يكتبه»، أوصله التّأمّلُ في ذاته، وفي كتابته، إلى حقيقة «أنّ النّقص خارج السّطور»، وأنّ الخلل في الكتابة يأتي من مكان آخر، خارج الكتابة بالتأكيد، وداخل الذّات بالتأكيد أيضاً: في الطبقة السفلى من النّفس، ومن الرّعب، والتحسّب!.. الخلل يغور عميقاً في الدّاخل، بفعل ضغط قمعي من الخارج.. ويستكين عشرَ سنوات من الانقماع.. ولكن، إلى متى؟.. فقد «تلاشت أخيراً طبقات الحذر».ـ كتب وأوهمَ نفسه ـ «هي المجابهة» إذن!.. وهي أيضاً الإشكالية الأعمق من هاجس المجابهة!.

فهو، إذْ كتب ما كتب (في القصّة رقم: ٣، عن شياطين الأمن) فإنّه قام هو نفسه (في مقطع: الكاتب ينتهي) بعمليّة قمع للذّات:

ـ انتبه، أيّها الكاتب اللّعين!.. مادمتَ كتبتَ هذا، ولو على الورق، وقبل أن تذيعه في النّاس.. فسوف تصير إلى هذا، في الواقع الفعلي: نقتحم عليك غرفتك، ولو موصدة، ونحطّم ـ كالعادة ـ كلّ شيء.. ونقذف بك إلى قبو التّعذيب السّفلي الرّاعب.

فانقمعْ، أيّها الكاتب!

وانقمعَ «الكاتبُ» بأنّ صوّر حالة القمع نفسها، على الورق، كأنّما هو يكتبها لنفسه، وكأنّهم، هم، عرفوا ما كتب قبل أن يقرأوه، بل ربّما قبل أن يكتبه أصلاً.. ثمّ كأنّهم جاءوا إليه، يجرجرونه.. وكأنّه يذهب معهم إلى القبو وظلمات التّعذيب!

كيف عرفوا؟

وهل هم الّذين عرفوا، أمْ هو «الكاتب» نفسه لايزال يتحسَّب ويتوجّس ويرتعب من النّتائج اللاّحقة لقصّته الأخيرة بالذّات؛ فاستبقَ هو الأمور ـ لنفسه ـ على الورق.. وأتى بهم قبل أن يأتوا.. أوجدهم أمام عينيه.. شخّصهم.. أشعرَ نفسه بضرباتهم وركلات أحذيتهم، ليقول لنفسه: عُدْ إلى مكانك أيها «الكاتب» النّائب!. عُدْ إلى قَبْوِكَ وغرفتك الموصدة!.. لا تقتربْ أبداً من مناطق الخطر.. فنحن موجودون أكثر ممّا تتصوّر، وفي أعمق ممّا تتصوّر.. موجودون حتّى في أعمق الطّبقات السّفلى من ذاتك، وفي ركام المكبوتات!؟..

شخّصَ الكاتب لنفسه، إذن، ما هو متخيّل.. فرأى النّساء المتشحات بالسّواد، رأى جثّة مقتول القبو.. ورأى نفسه معتقلاً، فراح يسائل نفسه عن هذا الّذي يجري أمامه: كيف يكون قبل أن يكون، كيف رآه قبل أن يحدث؟

فهل الغرائبيّة هنا هي إشكاليّة كتابيّة، وشكلٌ من التّجريب البارع، أم هي إشكاليّة وجوديّة حياتيّة كيانيّة، بالأساس؟

ويظلّ «الكاتب» يسائل نفسه: هل الحكايات تتوالد إذْ تنكتب؟ أم هي تتوالد ـ في الذّات ـ حتّى لا تنكتب.. أو، بالأقلّ، حتّى لا تُنشر.. لتعود فتنقمع بين ركام المكبوتات؟..

في الأسطر الأخيرة من القصّة، يتذكّر «الكاتب» أنّه نسي أن يقلب السّاعة

الرّمليّة!.

ولكنّ الزّمن يجري ـ طبعاً ـ خارج السّاعة.

والكلمات المكبوتة؟.. هل تملك أن تظل قابعة هناك، في الطّبقات السّفلى، مع الرّمل السّاكن، في القعر السّفلي للساعة الرّمليّة؟.

«الكاتب ينتهي» ـ هذا هو عنوان المقطع الأخير من هذه القصّة ذات المقاطع الخمسة.. هل هذا يعني أنّ «الكاتب» ينتهي من كتابة قصّته هذه؟.. أم أنّ الكاتب ينتهي ـ ككاتب ـ عندما يُرغم الكلمات المكبوتة في أغوار نفسه على أن تظلّ مكبوتة؟!.

الجواب قاله إلياس فركوح، بوضوح قاس، عبر االمسار التّشكيلي لهذه القصّة المتعدّدة المستويات، حيث يصير **الشّكل** التّجريبي، الغرائبي، هو **المضمون**، و**الموقف** سواءً بسواء، ويصير صورةً فنّيّة للواقع الغرائبي نفسه، وإضافة فنّيّة جديدة إليه. □

البيان الختامي للملتقى

القصّة... المجتمع.. الحريّة..

بدعوة من وزارة الثّقافة عقد في عمّان في ٢٢ وحتّى ١٩٩٣/٨/٢٥ ملتقى عمّان الثّقافي الثّاني حول موضوع «القصّة القصيرة في الأردن وموقعها من القصّة العربيّة».

وقد قُدّمت للملتقى عدّة بحوث ودراسات تناولت أربعة محاور هي: نشأة القصّة القصيرة في الأردن وتطوّرها وملامحها الفنّيّة وتقنياتها؛ وأثر التّراث العربي والإسلامي والعالمي فيها؛ ومدى انعكاس القضايا والهموم الوطنيّة والقوميّة في النّتاج القصصي في الأردن؛ والمرأة قاصّة وقضيّة، إلى جانب عدد من الشّهادات الّتي ألقت أضواء كاشفة على التّجربة القصصيّة لكلّ مبدع. وجرى نقاش مستفيض حول هذه المحاور والشّهادات، بمشاركة ما يزيد على مئة وخمسين من الكتّاب والدّارسين وأساتذة الجامعات، في جوّ من الصّراحة والمسؤوليّة والحوار الهادف والنّقد البنّاء.

وأكّد المشاركون من خلال بحوثهم والمناقشات الّتي دارت خلال الأيّام الأربعة للملتقى، أنّ القصّة القصيرة في الأردن هي جزء عضوي من القصّة القصيرة العربيّة، تأخذ بمسارها وتتأثّر بها وتؤثّر فيها، وتعيش قضاياها وتتوحّد معها في الطّروحات والهموم والتّطلعات إلى تحقيق إبداع ذي هويّة قوميّة يسهم في تقدّم المجتمع العربي وإشاعة الدّيمقراطيّة فيه.

لقد كان ملتقى عمّان الثّقافي الثّاني فرصة مهمّة لالتقاء المثقّفين العرب والتّواصل مع الإبداع والمبدعين الأردنيّين والتّحاور في القضايا الأساسيّة للثقافة العربيّة والمثقّفين العرب والمتعلقة بحريّة الإبداع والهويّة الثّقافيّة للأمّة العربيّة وحماية الإبداع والمبدعين ورفع القيود والرّقابة عن جميع أشكال الإنتاج الأدبي والفكري، وتأكيد دور المبدعين والمثقّفين الطّليعي في المجتمع العربي.

وقد كانت مناقشات الملتقى حول القصّة القصيرة كاشفة لإشكاليات تتّصل بالنّشأة والبدايات، وبالتّجنّس والمرجعيّة والتّجريب وببروز عناصر الغرائبيّة ومجاوزة الواقعيّة الاستنساخيّة. وهذه الإشكاليات الّتي تعيشها القصّة القصيرة في الأردن هي جزء من إشكاليات ومن أسئلة القصّة في الثّقافة العربيّة الّتي قطعت أشواطاً من التطوّر والتّبلور بوصفها جنساً أدبياً ديناميّاً يلتقط لحظات التحوّل الاجتماعي والحضاري والنّفسي، مثلما يشخّص الصّراع والمعاناة في مجالات علائق المواطن بالسّلطة وبالتّقاليد المتحجّرة وبالإيديولوجيّات القامعة لحريّة الوجود والتحقّق.

وقد جاء تحليلُ بعض النّماذج القصصيّة الأردنيّة مدعماً لإمكانات هذا الجنس التّعبيري في إغناء وجدان القارئ وشَحْذ وعيه النّقدي ورصد التحوّلات انطلاقاً من اللّغة والتّخييل وتحوير معطيات الواقع الخام. وهذا ما كوّن قناعةً لدى المشاركين في هذا الملتقى بضرورة إيلاء الجهد لإقامة علائق جديدة بين النّصّ القصصي وبين المتلقّي ودعوة النّقّاد إلى الاهتمام بجميع الإنتاجات القصصيّة بعيداً عن المجاملة واعتبارات الصّداقة والتّلميح. وفي هذا الصّدد يتوجّب الاهتمام أيضاً بإنتاج الشّباب وإبراز خصائصه وإضافاته إلى ذخيرة القصّة القصيرة الأردنيّة.

وأوضحت المناقشات أنّ طرائق نقد القصّة، سواء في الأردن أو في الوطن العربي، ماتزال تحتاج إلى المزيد من التّدقيق والتّطوير حتّى تتمكّن مناهج القراءة والتّحليل من أن تكشف خصوصيّات النّصّ القصصي شكلاً ومضموناً ولغةً. وليس المقصود بمنهج القراءة تحويل القصّة إلى مجال لتطبيق المصطلحات والمفاهيم، بل الحرص أساساً على إنتاج معرفة، وإبراز ما تحمله القصّة من رؤيات وانتقادات بعيدة المدى وإعادة الصّلة بينها وبين القارئ الجادّ في عصر الثّقافة الاستهلاكيّة.

وعلى هذا الأساس فإن ملتقى عمّان يدعو المؤسّسات التّربويّة العربيّة إلى مزيد من تضمين منتجات من القصّة ضمن برامج التّدريس الثّانوية، وإلى حثّ الباحثين الجامعيّين على دراستها في أطروحاتهم وكذلك تخصيص حيز لائق من برامج الإذاعة والتّلفزة لقراءة القصّة وتنظيم علاقة مباشرة بين القاصّ والجمهور الواسع.

إنّ ملتقى عمّان هو حلقة ضمن حلقات سابقة ولاحقة يقدّم أسئلته واجتهاداته لتدعيم مسيرة القصّة القصيرة في الأردن وفي العالم العربي، على أساس أنّ الحوار بين المبدعين والنّقّاد والقرّاء هو منطلق كلّ تجذير وتعميق وتواصل. وإذا كانت موضوعات هذا اللّقاء قد توخّت الشّموليّة فالمأمول في لقاءات قادمة أن تتجه الموضوعات إلى التّخصّص لتتيح تحليلاً أعمق من خلال البحث والحوار.

وقد عبّر المشاركون في ملتقى عمّان للقصّة القصيرة عن تقديرهم العالي لمبادرة وزارة الثّقافة الأردنيّة، ونوّهوا بجهود الوزارة في إقامة جسور التّواصل بين الأدب العربي في الأردن ومحيطه العربي الأوسع، واعتبروا برنامج ملتقيات عمّان الثّقافيّة خطوة ذات شأن على طريق انعاش الأدب في الأردن وإسهامه في بناء المستقبل المنشود للأدب العربي، وخاصّة في هذه الظّروف الّتي يعاني فيها الأدب من محاولات التّهميش والتّشكيك في رسالته وفعاليته.

وفي هذا الصّدد أكّد المشاركون أنّ الأدب العربي، ومن ضمنه القصّة القصيرة، يظلّ أحد مجالات الإبداع العربي القادر على تشخيص الأزمة وفضح ما يتهدّد حريّة المواطن العربي، ومقاومة أساليب القمع والاحتقار والارهاب الفكري، والعمل على الارتفاع بالكرامة الإنسانيّة والارتقاء بالتّفكير العربي من السّكونيّة والوثوقيّة إلى الوعي وصوغ أسئلة التّجاوز.